مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة الرابعة

عنوان المحاضرة: (حسان بن ثابت – نسبه، واسلامه، وأغراض شعره الإسلامية)

أولاً- نسبه وقبيلته

هو أبو الوليد حسان بن ثابت من قبيلة الخزرج، التي هاجرت من اليمن إلى الحجاز، وأقامت في المدينة مع الأوس. ولد في المدينة قبل مولد الرسول بنحو ثماني سنين، فعاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة أخرى، وشب في بيت وجاهة وشرف ، فأبوه ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي، من سادة قومه وأشرافهم، وأمه الفريعة خزرجية مثل أبيه. وحسان بن ثابت ليس خزرجيًّا فحسب؛ بل هو أيضًا من بني النجار أخوال رسول الله فله به صلة وقرابة.

حسان بن ثابت قبل الإسلام

كانت المدينة في الجاهلية ميدانًا للنزاع بين الأوس والخزرج، تكثُر فيها الخصومات والحروب، وكان قيس بن الخطيم شاعر الأوس، وحسان بن ثابت شاعر الخزرج، الذي كان لسان قومه في تلك الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية، فصارت له في البلاد العربية شهرةٌ واسعة.

وقد اتصل حسان بن ثابت بالغساسنة، يمدحهم بشعره ، وقد أفاد من احتكاكه بالملوك معرفةً بشعر المديح وأساليبه ، ومعرفة بشعر الهجاء ومذاهبه ، ولقد كان أداؤه الفني في شعره يتميز بالتضخيم والتعظيم، واشتمل على ألفاظ جزلة قوية.

حسان بن ثابت في الإسلام

لما بلغ حسان بن ثابت الستين من عمره، وسمع بالإسلام، دخل فيه، وراح من فوره يرد هجمات القرشيين اللسانيَّة، ويدافع عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والإسلام، ويهجو خصومهما. قال رسول الله يومًا للأنصار: (ما يمنع القوم الذين

نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم)؟!" فقال حسان بن ثابت: (أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال: "والله ما يسرني به مِقْول بين بصرى وصنعاء).

ولم يكن حسان بن ثابت وحده هو الذي يرد هجاء المشركين من الشعراء؛ بل كان يقف إلى جانبه عدد كبير من الشعراء المسلمين ، وكان النبي يثني على شعر حسان، وكان يحثُّه على ذلك ويدعو له بمثل:(اللهم أيده بروح القدس)، وعطف عليه وقرَّبه منه.

وقد كان رسول الله قال للناس : (اهجُ قريشًا، فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل)، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: "اهجهم"، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنَبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحقَ! لأفرينَّهم بلساني فرْيَ الأديم.. فقال رسول الله : "لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبًا، حتى يلخص لك نسبي"، فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق!! لأسلنَّك منهم كما تسل الشعرة من العجين.. قالت عائشة – رضي الله عنها: فسمعت رسول الله يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله"، وقالت: سمعت رسول الله يقول: "هجاهم حسان، فشفى واشتفى".

توفي حسان بن ثابت في المدينة المنورة سنة (٥٤هـ= ٦٧٣/٦٧٤م) في عهد معاوية بن أبي سفيان عن عمر قد ناهز المائة والعشرين عامًا.

ثانياً- أغراض شعر حسان بن ثابت في الإسلام

إنّ أهم موضوع لحسان هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهم. ويمكن تحديد الأغراض الشعرية لحسان بن ثابت في العصر الإسلامي بما يأتي:

ألاول- المديح:

الذي نجده في شعر حسان لهذا العهد، فهو مقصور على النبي وخلفائه وكبار الصحابة، والذين أبلَوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسنًا، وهو يختلف عن المدح التكسُّبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقَّة والعقيدة النفيسة، قال حسان:

نبـــي أتانـــا بعـــد يـــأسٍ وفتـــرةٍ مـــن الرســـل والأوثـــانُ فـــي الأرض

فأمســـى ســـراجًا مســـتنيرًا وهاديًـــا يُلـــوحُ كمـــا لاح الصـــقيلُ المهنـــدُ

وأنـــذرنا نـــارًا وبشّـــر جـــنة وعلمنـــا الإســـلامَ، فـــاللهَ نحـــمدُ

ثانياً- الهجاء:

ولقد وجهه إلى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وكان موقف الشاعر تجاههم حربًا لما بينهم وبين الرسول من نسب. إلا أن حسان بن ثابت لم يكن يهجو قريشًا بالكفر وعبادة الأوثان؛ وإنما كان يهجوهم بالأيام التي هُزِموا فيها، ويُعيرهم بالمثالب والأنساب، ولو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغًا.

أما أسلوبه في هجائه فيرتكز على فصل الرجل عن قبيلته القرشية ، وجعله غريبا وحيداً ثم يوجه له سهام الهجاء المقذع إلى شخصه وعرضه وعشيرته محقرا ومتهماً إياه بالبخل والدناءة والفحش والجهل.

قال حسان في همزيته مدافعا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم-:

ألا أبلـــغ أبـــا ســـفيان عنـــي فأنـــت مجـــوف نخـــب هـــواء

بـــأنّ ســـيوفنا تركتـــك عبـــداً وعبـــد الـــدار ســـادتها الإمـــاء

هجـــوت محمـــدًا فأجبـــت عنـــه وعنـــد الله فـــي ذاك الجـــزاء

ثالثاً- الرثاء:

فإن الرثاء في شعر حسان بدا صادقا في دعم الدعوة الإسلامية من حيث ربطه بالمفاهيم الإسلامية التي تحولت فيه حرقة بكاء فراق القتلى إلى بشرى ، بفوزهم بالجنة ولقاء بالأحبة والشهداء فيها.

أما مراثيه لرسول الله فقد أخذت طابعا آخر بأنها تمثل حزنا عميقا لفقد النبي – صلى الله عليه وسلم– الموجه للمسلمين جميعا. فقد ترك فراق الرسول في نفس حسان فراغا كبيراً ، لأن موت الرسول يمثل انقطاع الوحي وحامل الرسالة.

لهذا نجد أن معاني الرثاء قد تغيرت عما كانت عليه في الجاهلية ، إذ أصبحت معاني الرثاء إسلامية ، وذكر الرسوم ليس للوقوف عليها وتذكر الماضي وإنما استذكارا للفقيد ولحضات الأنس به في حياته ومن هنا فإن رسوم الرسول خالدة وليست مندرسة وتجدد الحزن في كل وقت. ونلحظ ذلك في قول حسان:

بَطَيبَــةَ رَســمٌ لِلرَســولِ وَمَعهَــدُ مُنيـرٌ وَقَـد تَعفـو الرُسـومُ وَتَهمَـدُ

وَلا تَمتَحـي الآيـاتُ مِـن دارِ حُرمَـةٍ بِها مِنبَرُ الهادي الَذي كـانَ يَصعَدُ

وَواضِــحُ آثــارٍ وَبــاقي مَعــالِمٍ وَرَبــعٌ لَــهُ فيــهِ مُصَــلّى وَمَســجِدُ

مَـعَ المُصـطَفى أَرجـو بِـذاكَ جِـوارَهُ وَفـي نَيـلِ ذاكَ اليَـومِ أَسـعى وَأَجهَـدُ

فالشاعر برثاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قد ذرف دموعًا حارة، وضمنه لوعة وتذكرًا لأفضال وأخيراً نجد الشاعر يؤكد نوازعه الثلاثة في رثاء رسول الله ، وحنينًا إلى جواره في النعيم وهي:

١–ألم شديد لفراق الرسول، وشموخ خلقه وفعاله.

٢–خلود الرسالة التي حملها.

٣–بيان عاطفته ولهفته في أن يلقاه في الجنة.

ثالثاً– المكانة الفنية لشعر حسان بن ثابت

اتفق الرواة والنقَّاد على أن حسان بن ثابت أشعَر أهل المدر في عصره، وأشعر أهل اليمن قاطبةً.

أما مكانة شعر حسان من الناحية الفنية فقد ذكرت فيه آراء نقدية كثيرة قديمة وحديثة ، لعل أهمها ماله صلة بضعف لغة الشعر في الاسلام أو قوتها قال أبو عبيدة:(فضل حسان على الشعراء بثلاث: كان شاعر الانصار في الجاهلية ، وشاعر النبي (ص) في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام) . وقال :(أجمعت العرب على أنّ حساناً أشعر أهل المدر) . وقال أبو عمرو بن العلاء : (أشعر أهل الحضر حسان بن ثابت) . أما أبن سلاّم فقد عد فحول المدينة الخمسة هم : (حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت) . وأشعرهم حسان بن ثابت وتابعه على ذلك أبو الفرج الاصفهاني . أما الاصمعي فقد ذكر عنه أكثر من رأي عن حسان سبب خلافاً بين الباحثين فقد وصفه بأنّه أحد فحول الشعراء ولكنه لم يذكره في رسالته المسماة (فحول الشعراء) ويرى الأصمعي أيضاً تميز شعر حسان الذي قاله قبل الاسلام فهو يراه من أجود الشعر ، وأنّ شعره في الاسلام أقل جودة فإذا بحثنا عن سبب ذلك برأي الأصمعي وجدناهم ينسبون إليه تعليلاً مفاده أنّ (الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي وحمزة وجعفر وغيرهم لان شعره أو طريق الشر هو طريق الفحول مثل أمرؤ القييس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحلة والهجاء والمديح والتشبيه بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فإذا أدخلته في باب الخير لان).

ويمكن مناقشة هذا النص للأصمعي والرد عليه بما ياتي:

١- لم يكن شعر حسان قبل الاسلام في باب الشر حتى يقال علا في الجاهلية فإذا دخل الاسلام لان؛ لأنّه لم يؤثر عن حسان اشتراكه في الحروب مع قومه وقوي شعره تبعاً لذلك بل كانت حياته وادعة مترفة.

٢- إنّ شعر حسان الذي قاله قبل الاسلام لم يكن على نمط واحد من الجودة أو الركة وإنما شعره متفاوت بينهما وكذا كان شعره في الاسلام.

٣-إنّ كثيراً من أشعاره التي بدت ضعيفة ركيكة يمكن أن تدرج تحت الشعر الموضوع الذي نص القدماء على كثرة وضعه على لسان حسان لسبب من أسباب الانتحال المعروفة

٤- إن الدراسة التحليلية لمراثي حسان في الرسول- صلى الله عليه وسلم- أو في شهداء المسلمين تؤكد خلاف رأي الأصمعي لأننا وجدنا فيها صدقاً في العاطفة ، واندفاعاً في تسخير هذه المراثي في سبيل الدعوة الإسلامية ، وهذا مبدأ ما كان يدفع حسان في مراثيه قبل الاسلام التي بدا بعضها خالياً من الروح والعاطفة.

٥- إنّ التفاوت في شعر حسان مرده الى طبيعة الدعوة الاسلامية التي عاشت ظروفاً صعبة ومختلفة جعلت الشعر إحدى وسائلها في المواقف. وكان حسان أحياناً يرتجل في تلك المواقف . وهذا الارتجال قد يبدع فيه حسان وقد لايصل فيه الى الإجادة الفنية ولكنه يبقى ملتزماً فيما وجه إليه ، مما جعل شعره سلاحاً بناء في خدمة الاسلام والمسلمين.